بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، الذي أكرمنا وجعلنا من المسلمين، وأمرنا أن نتفقه بهذا الدين، وأن نكون من العالمين العاملين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطاهرين الوجلين المتقين، وأصحابه العلماء الورعين الوارثين، وعلى أتباعه من القرَّاء والفقهاء والمحدثين، وعلى من تبعهم من المؤمنين، بإحسان إلى يوم الدين، حتى نلقى الله تعالى ونحن من الفائزين المستبشرين الضاحكين، آمين آمين آمين يا رب العالمين.

وبعد:

فقد أوكل إلينا الأخ الحبيب أبو عامر من غير موعد سابق، للعمل في كتاب «**فقه السنة**» للمرحوم السيد سابق، فأجبته لأنه لا يسعني أن أرى في وجهه العتب، فأمثاله لا ترد لهم إشارة فكيف بالطلب، ورغم الشغل الشاغل والتعب، ورغم قلة العلم والعمل، فليس لنا من الله إلا حسن الظن وبه الأمل، فاطلعت على الكتاب المذكور، وقرأته بتمعن من غير تباطؤ ولا فتور، فأدهشني الكتاب وأخذ لبي، وتعلق بطياته قلبي، ولا شك أنه رحمه الله تعالى حاول جاهداً أن يقدم الفقه بأسلوب سهل، وبحلة جديدة وتفريعات جيدة على علم منه من غير جهل، ولقد لفت انتباهي كثرة جمعه في طيات كتابه الكثير من أقوال العلماء، من الصحابة والتابعين والمحدثين والفقهاء، مما جعلني أتتبع مصادره ومراجعه التي اعتمد عليها بالتصنيف، فوجدتها كثيرة، وبالوقوف عليها جديرة، مما يدل على وفور علمه، وغور فقهه وفهمه، ومما يبين لنا سعة اطلاعه وحسن انتقائه ودقة انتقابه، ولم نتتبع في الكتاب ثغراته، فليس من شيمنا تتبع زلاته، فإن التتبع للزلات ليس من اللائق، حتى لا يفضحنا الله تعالى على رؤوس الخلائق، وإليك أخي الكريم أهم المصادر والمراجع، التي عدت إليها بالتحقيق، وعزوت إليها بالتدقيق:

فأما بالنسبة للحديث الشريف: فكان جلّ اعتماده على الصحيحين، أعني: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وهما أهم وأصح الكتب بعد القرآن الكريم.

وأما بالنسبة للسنن: فقد اعتمد على السنن الأربعة، أعني: سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، وأكثر عنهم، كما اعتمد على السنن الكبرى للبيهقي، والسنن للدارقطني وأكثر عنهما كثيراً.

كما اعتمد على الصحاح الثلاثة: صحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، وصحيح الحاكم، أعني: المستدرك على الصحيحين.

وأما بالنسبة لأقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم فكان جلّ اعتماده على المصنَّفَيْن: أعني: المصنف لعبد الرزاق، والمصنف لابن أبي شيبة.

وأما بالنسبة للمسانيد: فقد اعتمد على مسند الإمام أحمد وأكثر منه، ومسند إسحاق بن راهويه، ومسند الشافعي، ومسند الطيالسي، ومسند البزار، ومسند ابن الجعد.

وأما بالنسبة للمعاجم: فقد اعتمد على المعجم الصغير، والمعجم الأوسط والمعجم الكبير للطبراني وأكثر منها.

وأما بالنسبة للفقه: فقد اعتمد على أقوال أصحاب المذاهب الأربعة: أعني: الإمام أبا حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام الشافعي.

فاعتمد لأقوال أبي حنيفة على كتاب:

1 ـ حاشية ابن عابدين.

2 ـ بدائع الصنائع.

3 ـ الكامل في شرح الهداية.

واعتمد لأقوال الإمام مالك على كتاب:

1 ـ الموطأ.

2 ـ المدونة الكبرى.

واعتمد لأقوال الإمام أحمد على كتاب:

1 ـ المغني والشرح الكبير.

واعتمد لأقوال الإمام الشافعي على كتاب:

1 ـ الأم.

واعتمد كثيراً على أقوال أئمة الفقه وغيرهم، منهم:

الإمام ابن حزم في كتابه «المحلى بالآثار».

والإمام ابن عبد البر في كتابه «التمهيد».

والإمام النووي في كتابه «المجموع»، وكتابه «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، وكتابه «الروضة»، وكتابه «الأذكار».

والإمام ابن المنذر في كتابه «الأوسط»، وكتابه «الإشراف على مذاهب الأشراف».

والإمام ابن المرتضى في كتابه «البحر الزخار».

والإمام الشوكاني في كتابه «نيل الأوطار»، وكتابه «سبل السلام».

والإمام القونوي في كتابه «فتح العلام».

والإمام القونجي في كتابه «الروضة الندية».

والإمام ابن حجر في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وكتابه «تلخيص الحبير»، وكتابه «الدراية»، وكتابه «بلوغ المرام».

والإمام ابن القيم في كتابه «تهذيب سنن أبي داود»، وكتابه «زاد المعاد»، وكتابه «الروح»، وكتابه «إغاثة اللهفان».

والإمام الخطابي في كتابه «معالم السنن».

والإمام الدهلوي في كتابه «المسوى».

وهذا على سبيل العلم بهم وليس على سبيل الحصر، لأنه رحمه الله تعالى اعتمد أيضاً على الكتب الفقهية الحنفية والمالكية والحنبلية والشافعية، بالإضافة إلى غير من ذكرنا من أصحاب كتب الحديث الشريف، ولو أردنا أن نتتبع كل أقوالهم في الكتاب، لأصبح الكتاب بسبع مجلدات أو أكثر، وفي هذا القدر كفاية، لأولي الألباب، والله تعالى أعلم.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، فإنه لا علم لنا إلا ما علمنا، إنه هو العليم الحكيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير إلى عفو الله تعالى ورحمته

خليل بن مأمون شيحا

غفر الله له ولشيخه ابن عبد المحسن ولوالديه وللمسلمين

obeikandl.com

o.beikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة لِلإمَامِ
الشَّهِيدِ فَضِيلَةِ الأُسْتَاذِ حَسَنِ البَنَّا

الحَمْدُ لله، وَصَلَّىٰ الله عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَ. ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ القُرُبَاتِ إِلَىٰ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ نَشْرَ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَبَثَّ الأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ، وبِخَاصَّةٍ مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِهٰذِهِ النَّوَاحِي الفِقْهِيَّةِ، حَتَّىٰ يَكُونَ النَّاسُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[2].

وَإِنَّ مِنْ أَلْطَفِ الأَسَالِيبِ وَأَنْفَعِهَا، وَأَقْرَبِهَا إِلَىٰ القُلُوبِ وَالعُقُولِ فِي دِرَاسَةِ الفِقْهِ الإِسْلَامِيِّ - وَبِخَاصَّةٍ فِي أَحْكَامِ العِبَادَاتِ، وَفِي الدِّرَاسَاتِ العَامَّةِ الَّتِي تُقَدَّمُ لِجُمْهُورِ الأُمَّةِ - البُعْدَ بِهِ عَنِ المُصْطَلَحَاتِ الفَنِّيَّةِ، وَالتَّفْرِيعَاتِ الكَثِيرَةِ الفَرَضِيَّةِ، وَوَصْلَهُ مَا أَمْكَنَ ذٰلِكَ بِمَآخِذِ الأَدِلَّةِ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فِي سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وَالتَّنْبِيهَ عَلَىٰ الحِكَمِ وَالفَوَائِدِ مَا أُتِيحَتْ لِذٰلِكَ الفُرْصَةُ، حَتَّىٰ يَشْعُرَ القَارِئُونَ المُتَفَقِّهُونَ بِأَنَّهُمْ مَوْصُولُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، مُسْتَفِيدُونَ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ، وَفِي ذٰلِكَ أَكْبَرُ حَافِزٍ لَهُمْ عَلَىٰ الاسْتِزَادَةِ مِنَ المَعْرِفَةِ، وَالإِقْبَالِ عَلَىٰ العِلْمِ.

وَقَدْ وَفَّقَ اللَّهُ الأَخَ الفَاضِلَ الأُسْتَاذَ الشَّيْخَ: السَّيِّد سَابِق، إِلَىٰ سُلُوكِ هٰذِهِ السَّبِيلِ، فَوَضَعَ

---

(1) سورة التوبة، الآية: 122.

(2) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير» (الحديث: 19/ 395)، وأخرجه أبو داود في «السنن» (الحديث: 3641).

هٰذِهِ الرِّسَالَةَ السَّهْلَةَ المَأْخَذِ، الجَمَّةَ الفَائِدَةِ، وَأَوْضَحَ فِيهَا الأَحْكَامَ الفِقْهِيَّةِ بِهٰذَا الأُسْلُوبِ الجَمِيلِ. فَٱسْتَحَقَّ بِذٰلِكَ مَثُوبَةَ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَإِعْجَابَ الغَيُورِينَ عَلَىٰ هٰذَا الدِّينِ، فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنْ دِينِهِ وَأُمَّتِهِ وَدَعْوَتِهِ خَيْرَ الجَزَاءِ، وَنَفَعَ بِهِ، وَأَجْرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ الخَيْرَ لِنَفْسِهِ وَلِلنَّاسِ. آمِين.

حسن البنّا

obeikandl.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، والصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ بِهَدْيِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ».

أَمَّا بَعْدُ: فَهٰذَا الكِتَابُ يَتَنَاوَلُ مَسَائِلَ مِنَ الفِقْهِ الإِسْلاَمِيِّ مَقْرُونَةً بِأَدِلَّتِهَا مِنْ صَرِيحِ الكِتَابِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، وَمِمَّا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ. وَقَدْ عُرِضَتْ فِي يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ، وَبَسْطٍ وَٱسْتِيعَابٍ لِكَثِيرٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ المُسْلِمُ، مَعَ تَجَنُّبِ ذِكْرِ الخِلاَفِ إِلاَّ إِذَا وُجِدَ مَا يُسَوِّغُ ذِكْرَهُ فَنُشِيرُ إِلَيْهِ. وَهُوَ بِهٰذَا يُعْطِي صُورَةً صَحِيحَةً لِلْفِقْهِ الإِسْلاَمِيِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ، وَيَفْتَحُ لِلنَّاسِ بَابَ الفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَجْمَعُهُمْ عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَقْضِي عَلَىٰ الخِلاَفِ وَبِدْعَةِ التَّعَصُّبِ لِلْمَذَاهِبِ، كَمَا يَقْضِي عَلَىٰ الخُرافَةِ القَائِلَةِ بِأَنَّ بَابَ الاجْتِهَادِ قَدْ سُدَّ.

وَهٰذِهِ مُحَاوَلاَتٌ أَرَدْنَا بِهَا خِدْمَةَ دِينِنَا، وَمَنْفَعَةَ إِخْوَانِنَا، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلَنَا خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

القاهرة في 15 من شعبان 1365ف/هـ

السَّيِّد سابق

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَمْهِيدٌ

رِسَالَةُ الإِسْلاَمِ وَعُمُومُهَا والغَايَةُ مِنْهَا: أَرسَلَ اللَّهُ مُحَمَّداً ﷺ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَالشَّرِيعَةِ الجَامِعَةِ، الَّتِي تَكْفَلُ لِلنَّاسِ الحَيَاةَ الكَرِيمَةَ المُهَذَّبَةَ، وَالَّتِي تَصِلُ بِهِمْ إِلَىٰ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الرُّقِيِّ وَالْكَمَالِ. وَفِي مَدَىٰ ثَلاَثَةٍ وَعِشْرِينَ عَاماً تَقْرِيباً، قَضَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِي دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَىٰ اللَّهِ، تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ تَبْلِيغِ الدِّينِ وَجَمْعِ النَّاسِ عَلَيْهِ.

عُمُومُ الرِّسَالَةِ: وَلَمْ تَكُنْ رِسَالَةُ الإِسْلاَمِ مَوْضِعِيَّةً مُحَدَّدَةً، يختَصُّ بِهَا جِيلٌ مِنَ النَّاسِ دُونَ جِيلٍ، أَوْ قَبِيلٌ دُونَ قَبِيلٍ، شَأْنَ الرِّسَالاَتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْهَا، بَلْ كَانَتْ رِسَالَةً عَامَّةً لِلنَّاسِ جَمِيعاً، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا؛ لاَ يختَصُّ بِهَا مِصْرٌ دُونَ مِصْرٍ، وَلاَ عَصْرٌ دُونَ عَصْرٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[1] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[2] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾[3] وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ[4]: «كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ فِي قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ». وَمِمَّا يُؤَكِّدُ عُمُومَ هٰذِهِ الرِّسَالَةِ وَشُمُولَهَا مَا يَأْتِي:

1 ـ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَا يَصْعُبُ عَلَىٰ النَّاسِ اعْتِقَادُهُ، أَوْ يَشُقُّ عَلَيْهِمُ العَمَلُ بِهِ، قَالَ اللَّه تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[6]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[7]. وَفِي البُخَارِيِّ[8] مِنْ حَدِيثِ

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 1.
(2) سورة سبأ، الآية: 28.
(3) سورة الأعراف، الآية: 158.
(4) أخرجه مسلم في «الصحيح» (الحديث: 1163).
(5) سورة البقرة، الآية: 286.
(6) سورة البقرة، الآية: 185.
(7) سورة الحج، الآية: 78.
(8) أخرجه البخاري في «كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر» (الحديث: 39).

أَبِي سَعِيدٍ المَقْبِرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هٰذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ». وَفِي مُسْلِمٍ[1] مَرْفُوعاً: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ».

2 ـ أَنَّ مَا لاَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، كَالْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ، جَاءَ مُفَصَّلاً تَفْصِيلاً كَامِلاً، وَمُوَضَّحاً بِالنُّصُوصِ المُحِيطَةِ بِهِ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ أَوْ يُنْقِصَ مِنْهُ، وَمَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ، كَالْمَصَالِحِ المَدَنِيَّةِ، وَالأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ وَالحَرْبِيَّةِ، جَاءَ مُجْمَلاً، لِيَتَّفِقَ مَعَ مَصَالِحِ النَّاسِ فِي جَمِيعِ العُصُورِ وَيَهْتَدِي بِهِ أُولُو الأَمْرِ فِي إِقَامَةِ الحَقِّ وَالعَدْلِ.

3 ـ أَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ تَعَالِيمَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهِ حِفْظُ الدِّينِ، وَحِفْظُ النَّفْسِ، وَحِفْظُ العَقْلِ، وَحِفْظُ النَّسْلِ، وَحِفْظُ المَالِ، وَبَدَهِيٌّ أَنَّ هٰذَا يُنَاسِبُ الفِطَرَ وَيُسَايِرُ العُقُولَ، وَيُجَارِي التَّطَوُّرَ وَيَصْلُحُ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2]. وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[3].

الغَايَةُ مِنْهَا: وَالغَايَةُ الَّتِي تَرْمِي إِلَيْهَا رِسَالَةُ الإِسْلاَمِ، تَزْكِيَةُ الأَنْفُسِ وَتَطْهِيرُهَا عَنْ طَرِيقِ المَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، وَتَدْعِيمُ الرَّوَابِطِ الإِنْسَانِيَّةِ وَإِقَامَتُهَا عَلَىٰ أَسَاسٍ مِنَ الحُبِّ وَالرَّحْمَةِ وَالإِخَاءِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالعَدْلِ، وَبِذٰلِكَ يَسْعَدُ الإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[4]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[5]. وَفِي الحَدِيثِ: «أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[6].

---

(1) بل أخرجه البخاري في «كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر (قبل الحديث: 39 تعليقاً).

(2) سورة الأعراف، الآيتان: 32 ـ 33.

(3) سورة الأعراف، الآيتان: 156، 157.

(4) سورة الجمعة، الآية: 2.

(5) سورة الأنبياء، الآية: 107.

(6) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 1/ 91).

التَّشْرِيعُ الإِسْلاَمِيُّ أَوْ الفِقْهُ

وَالتَّشْرِيعُ الإِسْلاَمِيُّ نَاحِيَةٌ مِنَ النَّواحِي الهَامَّةِ الَّتِي ٱنْتَظَمَتْهَا رِسَالَةُ الإِسْلاَمِ، وَالَّتِي تُمَثِّلُ النَّاحِيَةَ العِلْمِيَّةَ مِنْ هٰذِهِ الرِّسَالَةِ. وَلَمْ يَكُنِ التَّشْرِيعُ الدِّينِيُّ المَحْضُ ـ كَأَحْكَامِ العِبَادَاتِ ـ يَصْدُرُ إِلاَّ عَنْ وَحْيِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ، مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، أَوْ بِمَا يُقِرُّهُ عَلَيْهِ مِنْ اجْتِهَادٍ. وَكَانَتْ مُهِمَّةُ الرَّسُولِ لاَ تَتَجَاوَزُ دَائِرَةَ التَّبْلِيغِ وَالتَّبْيِينِ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1].

أَمَّا التَّشْرِيعُ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِنْ قَضَائِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ، فَقَدْ أُمِرَ الرَّسُولُ ﷺ بِالْمُشَاوَرَةِ فِيهَا، وَكَانَ يَرَىٰ الرَّأْيَ فَيَرْجِعُ عَنْهُ لِرَأْيِ أَصْحَابِهِ، كَمَا وَقَعَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ﷺ، يَسْأَلُونَهُ عَمَّا لَمْ يَعْلَمُوهُ، وَيَسْتَفْسِرُونَهُ فِيمَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَانِي النُّصُوصِ، وَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مَا فَهِمُوهُ مِنْهَا، فَكَانَ أَحْيَاناً يُقِرُّهُمْ عَلَىٰ فَهْمِهِمْ، وَأَحْيَاناً يُبَيِّنُ لَهُمْ مَوْضِعَ الخَطَإِ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ. وَالقَوَاعِدُ العَامَّةُ الَّتِي وَضَعَهَا الإِسْلاَمُ، لِيَسِيرَ عَلَىٰ ضَوْئِهَا المُسْلِمُونَ هِيَ:

1 ـ النَّهْيُ عَنِ البَحْثِ فِيمَا لَمْ يَقَعْ مِنَ الحَوَادِثِ حَتَّىٰ يَقَعَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾[2]. وَفِي الحَدِيثِ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ، نَهَىٰ عَنِ الأُغْلُوطَاتِ»[3]، وَهِيَ المَسَائِلُ الَّتِي لَمْ تَقَعْ.

2 ـ تَجَنُّبُ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَعُضْلِ المَسَائِلِ: فَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ**»[4]. وعنه ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا**»[5]. وَعَنْهُ أَيْضاً: «**أَعْظَمُ النَّاسِ جُرْماً، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**»[6].

3 ـ البُعْدُ عَنِ الاخْتِلاَفِ وَالتَّفَرُّقِ بِالدِّينِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[7]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[8]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ

---

(1) سورة النجم، الآيتان: 3 ـ 4.
(2) سورة المائدة، الآية: 101.
(3) أخرجه الطبراني في «معجم الكبير» (الحديث: 19/ 389).
(4) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 20/ 224)،
(5) أخرجه الدارقطني في «السنن» (الحديث: 4/ 184).
(6) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 3/ 725).
(7) سورة المؤمنون، الآية: 52.
(8) سورة آل عمران، الآية: 103.

رِيحُكُمْ﴾[1]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[2]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾[3]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[4].

4 ـ رَدُّ المَسَائِلِ المُتنازَعِ فِيهَا إِلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: عَمَلاً بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[5]. وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[6]، وَذٰلِكَ لأَنَّ الدِّينَ قَدْ فَصَّلَهُ الكِتَابُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾[7]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[8]. وبَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ العَمَلِيَّةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[9]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[10]. وَبِذٰلِكَ تَمَّ أَمْرُهُ، وَوَضَحَتْ مَعَالِمُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[11].

وَمَا دَامَتْ المَسَائِلُ الدِّينِيَّةُ قَدْ بُيِّنَتْ عَلَىٰ هٰذَا النَّحْوِ، وَمَا دَامَ الأَصْلُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ التَّحَاكُمِ مَعْلُوماً، فَلاَ مَعْنَىٰ لِلاخْتِلاَفِ وَلاَ مَجَالَ لَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[12]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[13]. عَلَىٰ ضَوْءِ هٰذِهِ القَوَاعِدِ، سَارَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ القُرُونِ المَشْهُودِ لَهَا بِالْخَيْرِ، وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمُ اخْتِلاَفٌ، إِلاَّ فِي مَسَائِلَ مَعْدُودَةٍ. كَانَ مَرْجِعُهُ التَّفَاوُت فِي فَهْمِ النُّصُوصِ، وأَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَعْلَمُ مِنْهَا مَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ البَعْضِ الآخَرِ.

فَلَمَّا جَاءَ أَئِمَّةُ المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ تَبِعُوا سنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ، إِلاَّ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ السُّنَّةِ، كَٱلْحِجَازِيِّينَ الَّذِينَ كَثُرَ فِيهِمْ حَمَلَةُ السُّنَّةِ وَرُوَاةُ الآثَارِ، وَالبَعْضُ الآخَرُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ الرَّأْيِ كَٱلْعِرَاقِيِّينَ الَّذِينَ قَلَّ فِيهِمْ حَفَظَةُ الحَدِيثِ، لِتَنَائِي دِيَارِهِمْ عَنْ مَنْزِلِ الوَحْيِ. بَذَلَ هٰؤُلاَءِ الأَئِمَّةُ أَقْصَىٰ مَا فِي وُسْعِهِمْ فِي تَعْرِيفِ النَّاسِ بِهٰذَا الدِّينِ وهِدَايَتِهِمْ بِهِ، وَكَانُوا يَنْهَونَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَيَقُولُونَ: لاَ يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ قَوْلَنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ دَلِيلَنَا، وَصَرَّحُوا أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُوَ

(1) سورة الأنفال، الآية: 46.
(2) سورة الأنعام، الآية: 159.
(3) سورة الأنعام، الآية: 159.
(4) سورة آل عمران، الآية: 105.
(5) سورة النساء، الآية: 59.
(6) سورة الشورى: 10:
(7) سورة الأنعام، الآية: 159.
(8) سورة الأنعام، الآية: 38.
(9) سورة النحل، الآية: 44.
(10) سورة النساء، الآية: 105.
(11) سورة المائدة، الآية: 3.
(12) سورة البقرة، الآية: 176.
(13) سورة النساء، الآية: 65.

الحَدِيثُ الصَّحِيحُ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَقْصِدُونَ أَنْ يُقَلِّدُوا كَالمَعْصُومِ ﷺ، بَلْ كَانَ كُلُّ قَصْدِهِمْ أَنْ يُعِينُوا النَّاسَ عَلَىٰ فَهْمِ أَحْكَامِ اللَّهِ. إلاَّ أَنَّ النَّاسَ بَعْدَهُمْ فَتَرَتْ هِمَمُهُمْ، وَضَعُفَتْ عَزَائِمُهُمْ، وَتَحَرَّكَتْ فِيهِمْ غَرِيزَةُ المُحَاكَاةِ وَالتَّقْلِيدِ، فَاكْتَفَىٰ كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ يَنْظُرُ فِيهِ، وَيُعَوِّلُ عَلَيْهِ، وَيَتَعَصَّبُ لَهُ، وَيَبْذُلُ كُلَّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ فِي نُصْرَتِهِ، وَيُنْزِلُ قَوْلَ إِمَامِهِ مَنْزِلَةَ قَوْلِ الشَّارِعِ، وَلاَ يَسْتَجِيزُ لِنَفْسِهِ أَنْ يُفْتِيَ فِي مَسْأَلَةٍ بِمَا يُخَالِفُ مَا اسْتَنْبَطَهُ إِمَامُهُ، وَقَدْ بَلَغَ الغُلُوُّ فِي الثِّقَةِ بِهَؤُلاَءِ الأَئِمَّةِ حَتَّىٰ قَالَ الكَرْخِيُّ: كُلُّ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ يُخَالِفُ مَا عَلَيْهِ أَصْحَابُنَا فَهُوَ مُؤَوَّلٌ أَوْ مَنْسُوخٌ.

وَبِالتَّقْلِيدِ وَالتَّعَصُّبِ لِلْمَذَاهِبِ فَقَدَتِ الأُمَّةُ الهِدَايَةَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَحَدَثَ القَوْلُ بِانْسِدَادِ بَابِ الاجْتِهَادِ، وَصَارَتِ الشَّرِيعَةُ هِيَ أَقْوَالُ الفُقَهَاءِ، وَأَقْوَالُ الفُقَهَاءِ هِيَ الشَّرِيعَةُ، وَاعْتُبِرَ كُلُّ مَنْ يَخْرُجُ عَنْ أَقْوَالِ الفُقَهَاءِ مُبْتَدِعاً لاَ يُوثَقُ بِأَقْوَالِهِ، وَلاَ يُعْتَدُّ بِفَتَاوِيهِ. وَكَانَ مِمَّا سَاعَدَ عَلَىٰ انْتِشَارِ هٰذِهِ الرُّوحِ الرَّجْعِيَّةِ، مَا قَامَ بِهِ الحُكَّامُ وَالأَغْنِيَاءُ مِنْ إِنْشَاءِ المَدَارِسِ، وَقَصْرِ التَّدْرِيسِ فِيهَا عَلَىٰ مَذْهَبٍ أَوْ مَذَاهِبَ مُعَيَّنَةٍ، فَكَانَ ذٰلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الإِقْبَالِ عَلَىٰ تِلْكَ المَذَاهِبِ، وَالانْصِرَافِ عَنِ الاجْتِهَادِ؛ مُحَافَظَةً عَلَىٰ الأَرْزَاقِ الَّتِي رُتِّبَتْ لَهُمْ! سَأَلَ أَبُو زُرْعَةَ شَيْخَهُ البُلْقِينِي قَائِلاً: مَا تَقْصِيرُ الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ السُّبْكِيِّ عَنِ الاجْتِهَادِ وَقَدْ اسْتَكْمَلَ آلَتَهُ؟ فَسَكَتَ البُلْقِينِي، فَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: فَمَا عِنْدِي أَنَّ الامْتِنَاعَ عَنْ ذٰلِكَ إلاَّ لِلْوَظَائِفِ الَّتِي قُدِّرَتْ لِلْفُقَهَاءِ عَلَىٰ المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ وَأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنْ ذٰلِكَ لَمْ يَنَلْهُ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ، وَحُرِمَ وِلاَيَةَ القَضَاءِ، وَامْتَنَعَ النَّاسُ عَنْ إِفْتَائِهِ، وَنُسِبَتْ إِلَيْهِ البِدْعَةُ فَابْتَسَمَ البُلْقِينِي وَوَافَقَهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ. وَبِالْعُكُوفِ عَلَىٰ التَّقْلِيدِ، وَفَقْدِ الهِدَايَةِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالقَوْلِ بِانْسِدَادِ بَابِ الاجْتِهَادِ وَقَعَتِ الأُمَّةُ فِي شَرٍّ وَبَلاَءٍ وَدَخَلَتْ فِي جُحْرِ الضَّبِّ الَّذِي حَذَّرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ.

كَانَ مِنْ آثَارِ ذٰلِكَ أَنِ اخْتَلَفَتِ الأُمَّةُ شِيَعاً وَأَحْزَاباً، حَتَّىٰ إِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ تَزَوُّجِ الحَنَفِيَّةِ بِالشَّافِعِي، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ يَصِحُّ؛ لأَنَّهَا تَشُكُّ فِي إِيمَانِهَا، وَقَالَ آخَرُونَ: يَصِحُّ قِيَاساً عَلَىٰ الذِّمِّيَّةِ. كَمَا كَانَ مِنْ آثَارِ ذٰلِكَ انْتِشَارُ البِدَعِ، وَاخْتِفَاءُ مَعَالِمِ السُّنَنِ وَخُمُودُ الحَرَكَةِ العَقْلِيَّةِ، وَوَقْفُ النَّشَاطِ الفِكْرِيِّ، وَضَيَاعُ الاسْتِقْلاَلِ العِلْمِيِّ، الأَمْرُ الَّذِي أَدَّىٰ إِلَىٰ ضَعْفِ شَخْصِيَّةِ الأُمَّةِ، وَأَفْقَدَهَا الحَيَاةَ المُنْتِجَةَ، وَقَعَدَ بِهَا عَنِ السَّيْرِ وَالنُّهُوضِ، وَوَجَدَ الدُّخَلاَءُ بِذٰلِكَ ثَغَرَاتٍ يَنْفُذُونَ مِنْهَا إِلَىٰ صَمِيمِ الإِسْلاَمِ. مَرَّتِ السُّنُونُ، وَانْقَضَتِ القُرُونُ، وَفِي كُلِّ حِينٍ يَبْعَثُ اللَّهُ لِهٰذِهِ الأُمَّةِ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا، وَيُوقِظُهَا مِنْ سُبَاتِهَا، وَيُوَجِّهُهَا الوِجْهَةَ الصَّالِحَةَ، إلاَّ أَنَّهَا لاَ تَكَادُ تَسْتَيْقِظُ حَتَّىٰ تَعُودَ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، أَوْ أَشَدَّ مِمَّا كَانَتْ.

وَأَخِيراً انْتَهَىٰ الأَمْرُ بِالتَّشْرِيعِ الإِسْلاَمِيِّ، الَّذِي نَظَمَ اللَّهُ بِهِ حَيَاةَ النَّاسِ جَمِيعاً، وَجَعَلَهُ سِلاَحاً لِمَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، إِلَىٰ دَرَكَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مَثِيلٌ؛ وَنَزَلَ إِلَىٰ هُوَّةٍ سَحِيقَةٍ، وَأَصْبَحَ

الاشْتِغَالُ بِهِ مَفْسَدَةً لِلْعَقْلِ وَالقَلْبِ، وَمَضْيَعَةً لِلزَّمَنِ، لاَ يُفِيدُ فِي دِينِ اللَّهِ وَلاَ يُنَظِّمُ مِنْ حَيَاةِ النَّاسِ. وَهٰذَا مِثَالٌ لِمَا كَتَبَهُ بَعْضُ الفُقَهَاءِ المُتَأَخِّرِينَ: عَرَّفَ ابْنُ عَرَفَةَ الإِجَارَةَ فَقَالَ: بَيْعُ مَنْفَعَةٍ مَا أَمْكَنَ نَقْلُهُ، غَيْرَ سَفِينَةٍ وَلاَ حَيَوَانٍ، لاَ يُعْقَل بِعِوَضٍ غَيْرِ نَاشِىءٍ عَنْهَا، بَعْضُهُ يَتَبَعَّضُ بِتَبْعِيضِهَا. فَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ أَحَدُ تَلاَمِيذِهِ، بِأَنَّ كَلِمَةَ بَعْضٍ تُنَافِي الاخْتِصَارَ، وَأَنَّهُ لاَ ضَرُورَةَ لِذِكْرِهَا، فَتَوَقَّفَ الشَّيْخُ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَجَابَ بِمَا لاَ طَائِلَ تَحْتَهُ.

وَقَفَ التَّشْرِيعُ عِنْدَ هٰذَا الحَدِّ وَوَقَفَ العُلَمَاءُ لاَ يَسْتَظْهِرُونَ غَيْرَ المُتُونِ، وَلاَ يَعْرِفُونَ غَيْرَ الحَوَاشِي وَمَا فِيهَا مِنْ إِيرادَاتٍ وَاعْتِرَاضَاتٍ وَأَلْغَازٍ، وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنْ تَقْرِيرَاتٍ، حَتَّى وَثَبَتْ أُورُوبَّا عَلَى الشَّرْقِ تَصْفَعُهُ بِيَدِهَا، وَتَرْكُلُهُ بِرِجْلِهَا. فَكَانَ أَنْ تَيَقَّظَ عَلَى هٰذِهِ الضَّرَبَاتِ، وَتَلَفَّتَ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَإِذَا هُوَ مُتَخَلِّفٌ عَنْ رَكْبِ الحَيَاةِ الزَّاحِفِ، وَقَاعِدٌ بَيْنَمَا القَافِلَةُ تَسِيرُ، وَإِذَا هُوَ أَمَامَ عَالَمٍ جَدِيدٍ، كُلُّهُ الحَيَاةُ وَالقُوَّةُ وَالإِنْتَاجُ، فَرَاعَهُ مَا رَأَى، وَبَهَرَهُ مَا شَاهَدَ، فَصَاحَ الَّذِينَ تَنَكَّرُوا لِتَارِيخِهِمْ وَعَقُّوا آبَاءَهُمْ، وَنَسُوا دِينَهُمْ وَتَقَالِيدَهُمْ: أَنْ هَا هِيَ ذِي أُورُوبا يَا مَعْشَرَ الشَّرْقِيِّينَ، فَاسْلُكُوا سَبِيلَهَا، وَقَلِّدُوهَا فِي خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَإِيمَانِهَا وَكُفْرِهَا، وَحُلْوِهَا وَمُرِّهَا، وَوَقَفَ الجَامِدُونَ مَوْقِفاً سَلْبِيًّا، يُكْثِرُونَ مِنَ الحَوْقَلَةِ وَالتَّرْجِيعِ، وَانْطَوَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَزِمُوا بُيُوتَهُمْ، فَكَانَ هٰذَا بُرْهَاناً آخَرَ عَلَى أَنَّ شَرِيعَةَ الإِسْلاَمِ لَدَى المَغْرُورِينَ لاَ تُجَارِي التَّطَوُّرَ، وَلاَ تَتَمَشَّى مَعَ الزَّمَنِ، ثُمَّ كَانَتِ النَّتِيجَةُ الحَتْمِيَّةُ، أَنْ كَانَ التَّشْرِيعُ الأَجْنَبِيُّ الدَّخِيلُ هُوَ الَّذِي يُهَيْمِنُ عَلَى الحَيَاةِ الشَّرْقِيَّةِ، مَعَ مُنَافَاتِهِ لِدِينِهَا وَعَادَاتِهَا وَتَقَالِيدِهَا، وَإِنْ كَانَتِ الأَوْضَاعُ الأُورُوبِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَغْزُو البُيُوتَ وَالشَّوَارِعَ وَالمُنْتَدَيَاتِ وَالمَدَارِسَ وَالمَعَاهِدَ، وَأَخَذَتْ مَوْجَتُهَا تَقْوَى وَتَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي حَتَّى كَادَ الشَّرْقُ يَنْسَى دِينَهُ وَتَقَالِيدَهُ وَيَقْطَعَ الصِّلَةَ بَيْنَ حَاضِرِهِ وَمَاضِيهِ، إِلاَّ أَنَّ الأَرْضَ لاَ تَخْلُو مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، فَهَبَّ دُعَاةُ الإِصْلاَحِ يُهِيبُونَ بِهٰؤُلاَءِ المَخْدُوعِينَ بِالْغَرْبِيِّينَ، أَنْ: خُذُوا حِذْرَكُمْ، وَكُفُّوا عَنْ دِعَايَتِكُمْ، فَإِنَّ مَا عَلَيْهِ الغَرْبِيُّونَ مِنْ فَسَادِ الأَخْلاَقِ لاَ بُدَّ وَأَنْ يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى العَاقِبَةِ السَّوْأَى، وَأَنَّهُمْ مَا لَمْ يُصْلِحُوا فِطَرَهُمْ بِالإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَيُعَدِّلُوا طِبَاعَهُمْ بِالْمُثُلِ العُلْيَا مِنَ الأَخْلاَقِ، فَسَوْفَ تَنْقَلِبُ عُلُومُهُمْ أَدَاةَ تَخْرِيبٍ وَتَدْمِيرٍ، وَتَتَحَوَّلُ مَدَنِيَّتُهُمْ إِلَى نَارٍ تَلْتَهِمُهُمْ وَتَقْضِي عَلَيْهِمُ القَضَاءَ الأَخِيرَ. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾[1]. وَيَصِيحُونَ بِهٰؤُلاَءِ الجَامِدِينَ دُونَكُمُ النَّبْعَ الصَّافِي، والهَدْيَ

(1) سورة الفجر، الآيات: 6 ـ 14.

الكَرِيمَ، لِنَبْعِ الكِتَابِ وَهَدْيِ السُّنَّةِ، خُذُوا مِنْهُمَا دِينَكُمْ، وَبَشِّرُوا بِهِمَا غَيْرَكُمْ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَهْتَدِي بِكُمْ هٰذِهِ الدُّنْيَا الحَائِرَة، وَتَسْعَدُ بِكُمْ هٰذِهِ الإِنْسَانِيَّةُ المُعَذَّبَةُ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[1].

وَكَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَنِ اسْتَجَابَ لِهٰذِهِ الدَّعْوَةِ رِجَالٌ بَرَرَةٌ، وَتَلَقَّتْهَا قُلُوبٌ مُخْلِصَةٌ، وَاعْتَنَقَهَا شَبَابٌ وَهَبَهَا أَعَزَّ مَا يَمْلِكُ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ. فَهَلْ أَذِنَ اللَّهُ لِنُورِهِ أَنْ يُشْرِقَ عَلَىٰ الأَرْضِ مِنْ جَدِيدٍ؟ وَهَلْ أَرَادَ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً، يَسُودُهَا الإِيمَانُ والحُبُّ والإِحْسَانُ وَالعَدْلُ؟ هٰذَا مَا تَشْهَدُ بِهِ الآيَاتُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾[2]. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[3].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(2) سورة الفتح، الآية: 28.

(3) سورة فصلت، الآية: 53.

Obeikandl.com